الثقافة الإسلامية والمسلمون في كيرالا

د/ سيد علي الفيضي مولياكورشي

تمهيد:

الإسلام: الإسلام دين الوحدة، أسس على التوحيد الخالص، له شرائع وأحكام وواجبات ومنهيات، بيّنها الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم الذي هو دستور الإسلام والمسلمين. يجب عليهم أن يتبعوها ويستتنوا بها ويحافظوا عليها. والمسلمون هم أهل تراث عظيم، لهم نظام ومنهج واضح وشريعة شرعها الله لهم وأمرهم أن يتبعوها. والإسلام يرجو رفعة المسلمين وتقدمهم في كل مجال الحياة. وشجعهم قول الله عز وجل "وأنتم الأعلون إ ن كنتم مؤمنين". أرسل الله الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة الإسلام لتثقيف الناس الذين كانوا في قعر الجهالة والشرك والفاحشة ولتخريجهم من الجهالة إلى النور. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وكان الناس يعيشون فيه بلا هدف ولا نظام، وليس لهم دستور خاص يتبعونه، عيشهم كعيش الحيوانات. وقد انتشر بينهم شرب الخمر والميسر والزنا وقتل النفس التي حرم الله بلا سبب. وكانوا يحبون الدنيا والتمتع بعيشها. ولا يلتفتون إلى عيش الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب. ولأجل هذه كلها وصف المؤرخون هذا العصر أيضا بعصر ثلاثة دبليو (war wine woman) . وكانوا أيضا يعبدون الأصنام كاللات والعزى والمناة و يشركون بالله . و كان الناس في العصر الجاهلي إذا بشر احدهم بولادة الأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. و يقومون بوأد البنات البريئات خوفا من الفضحة والسخرية من الناس. ولا يعتبرون حقوق النساء ، وما كان لهن حق في أموال الموتى ، و كانوا لا يمنحون لهن الحرية ، ويأخذون أموال الغير

بالخيانة ، ولايعتبرون حقوق الإنسان لاسيما حقوق الفقراء والمساكين والأرامل. وهذه هي العادات الشنيعة والحالات السيئة التي جرت في العصر الجاهلي ، و نماذج الثقافة الفاسدة التي سادت في عصر الظلام.

الثقافة الإسلامية: الثقافة حسب تعريف قاموس أوكسفورد أن معنى الثقافة هي (The customs and the beliefs, art way of life and social organization of a particular country or group) يعني العادات والاعتقادات والفنون وطرق الحياة والنظام الاجتماعي كبلد خاص أو جماعة خاصة وتستخدم لفظة الثقافة في هذه المعاني كلها . وإذا أخذنا الثقافة الاسلامية وجدناها أيضا تشتمل على هذه المعاني كلها .

ونريد بثقافة المسلمين عاداتهم واعتقاداتهم وفنونهم وطرق حياتهم والنظام الاجتماعي لهم. ولازم على المسلمين أن يكونوا مثقفين بثقافة الاسلام وأن يكون لهم الايمان الخالص وأن يعرفوا طريق الحياة في الاسلام وعاداته والنظام الاجتماعي له وان يحفظوا عليها حسب وسعهم. يقول محمد مار ماتوك بكتال الذي ترجم القرآن الكريم إلى الانجليزية في كتابه"Cultural side of Islam" (الناحية الثقافية للاسلام). (Culture means cultivation and as the world is generally used nowadays when used alone especially the cultivation of the human minds) يعني ان المعنى العام للثقافة التجديد والارشاد والتزكية لا سيما تزكية قلوب الناس.

نعرف عن الثقافات المتنوعة مثل الثقافة الهندوكية والنصرانية والثقافة الأوربية والغربية وغيرها ولهذه الثقافات بعض العيوب والنقائص لأنها لم تنشأ من منبع رباني . وليس لها أصل الهي . ولاتقدر هذه الثقافات أن تقدم أن تزكي الانسان وترشده إلى الحق والصراط المستقيم والعدل . وعجزت هذه الثقافات أن تقدم الخدمات المستمرة الخالدة للعالم. وبعض هذه الثقافات يضل الانسان بها من سواء السبيل ويجلبهم إلى الضلالة والفساد والأفعال القبيحة.

والثقافة الاسلامية تتميز بخصال مختلف وهي ترجو للانسان الخير والنجاح وسعادة الدارين، وتهدي المجتمع الانساني إلى طريق الحق والاخلاق الفاضلة. وهذه الثقافة

العظيمة تزيل من الانسان أخلاق الحيوانات وتوصلهم إلى الانسانية. والميزة للثقافة الاسلامية أنها تشاهد الشخص أخا لشخص آخر وتحرضه لمعاملة أخيه بالحنان والرأفة والأخوة وتنمي في قلبه رسالة الانسانية والبر إلى أخيه وتنشر التضامن والمساواة بين أفراد المجتمع. وباتباع هذه الثقافة الاسلامية يقدر الانسان أن يعيش مع المحبة والاتحاد شخصا مثاليا وأن يرفع إلى أوج الكمال.

تأثير الثقافة الاسلامية في كيرالا:

وصلت دعوة الإسلام ورسالته أوّلا إلى كيرالا التي تقع في جنوب الهند بأيدي تجار العرب والوفود الذين قدموا إلى كيرالا لغرض التجارة ولنشر دين الإسلام . ترجع علاقاتها بالعرب إلى عهد النبي صلي الله عليه وسلم حيث أهدى ملك الهند إلى النبي صلى الله عليه وسلم جرة فيها زنجبيل فأطعم أصحابه قطعة قطعة كما رواه الحاكم (ر) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (المستدرك ١٣٥/٤) وكانت هذه الولاية معروفة عند العرب باسم مليبار منذ القديم وفي تسمية هذه المنطقة بكيرالا آراء مختلفة. يقول بعض الكتاب والمؤرخين أن لفظة كيرالا مركبة من كيرا وكلمة ألم يعني بها بلاد النارجيل. والآراء في تسمية هذه الولاية بكيرالا أكثرها يدل على أنها بلاد جبلية ومياهية. وهي صحيحة باعتبار طبيعتها الجغرافية لأن كيرالا قد كثرت فيها الجبال والآكام والغابات والأشجار وسواحل البحر والمناطق الغديرية. وتختلف طبيعة كيرالا من سائر الجهات الهندية .

وبدأ إطلاق لفظ مليبار على كيرالا منذ القرن الحادي عشرة . المؤلفون العرب مثل البيروني هم الذين استعملوا هذا الاسم في تأليفاتهم. واصل كلمة مليبار مركبة من كلمتي ملا (Mala) وبار(Bar) الفارسية أوبر العربية ملا أو ملى معناهما الجبل فمعنى مليبار بلاد الجبل .

وتاريخ بدأ ظهور الاسلام في كيرالا مرتبطة بقصة اعتناق تشيرمان فيرومال الاسلام. وانتشر الاسلام في كيرالا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. رأى أهل هذا البلد الدعاة والمبلغين الذين قدموا من بلاد العرب أنهم أهل ثقافة عظيمة، وفهموا من وعظهم ورسالاتهم وعيشهم المقدس أن الاسلام دين السلامة والأخوة والمساواة والتعاون. وبمشاهدة معاملتهم الحسنة والأخلاق الفاضلة وحياتهم الصافية والبساطة

مع التقوى وتواضعهم، اجتذب كثير من أهالي كيرالا إلى الاسلام. ولاسيما أسرعت الأجناس الرديئة إلى قبول رسالة الاسلام رجاء أن ينجو من قبضة هؤلاء الأجناس العالية ولكسر أغلال العبودية من اعناقهم . وفي هذه الظروف السيئة جاء الاسلام برسالة الانسانية والحرية وهذا تسبب لتطورات مهمة في إيمان سكان كيرالا وفي عيشهم وعلى هذا قال جواهرلال نهرو رئيس وزراء الهند سابقا أن انتشار الاسلام من الواقعة العظيمة في العالم .

وأثرت هذه الثقافات في العناصر الدينية والاقتصادية والاجتماعية . وكان الناس لا سيما الأجناس الرديئة كانوا يحتملون الأذى من الأجناس الرفيعة ويتضررون اقتصاديا . ومد الإسلام إليهم أيدي المساعدة لأن الاسلام يعطي أهمية كبرى لمساعدة الفقراء والمساكين. ويحرض المسلمين لتأدية الزكاة التي كانت واجبة عليهم . وقد سادت في ذلك العصر عادات فاسدة مثل منع اللمس والمصاحبة. إذا كان الشخص من قبيلة عالية مثل براهمنا لا يأذن نظام المجتمع القائم حينئذ أن يصاحب الطبقات الرديئة. ولا يجوز اللمس والنظر إليهم . والفرقة السافلة من المجتمع لا يسمح لهم أن يحضروا في المجلس الذي اشترك فيه الأجناس العالية. وهؤلاء من الطبقات العالية كانوا يجحدون حقوق الإنسان ولا سيما حقوق الأجناس السافلة. وقد بين الشاعر المشهور كومارناشان الحالة السيئة والعادات الفاسدة التي كانت تجري في ذلك العصر ويمدح فيه مساواة الإسلام وأخوته ويذم عادات الهندوكيين التي قامت في ذلك الزمن . وفي أثناء هذه الحالة انتشر الاسلام في كيرالا بسهولة.

هكذا وصل نور الاسلام في كيرالا ونشرت رسالته في كل نواحي البلاد، ودخل الناس في دين الله أفواجا. وعاشوا مع فرح وسرور بالأخوة والمساواة بلا اعتبار لون ونسب ولغة وجنس . وبهذه الرسالة العظيمة تطور الاسلام في أرض كيرالا . اضافة إلى هذا أن الحكام كانوا يساعدون الاسلام والمسلمين في نشر دينهم وبناء المساجد والمعاهد الدينية ، وكان ملوك الهندوس يمنحون كل مساعدة لنمو الثقافة الإسلامية في كيرالا وانتشر الاسلام سريعا في كل زاوية من زوايا هذا البلد. وقام المسلمون كالنشاطات الدينية والثقافية وأجروا لذلك أعمالا متنوعة و بنوا المساجد في كل نواحي البلاد حسب كثرة المسلمين وأقاموا فيها الدروس لتعليم الشريعة

الاسلامية. وقام العلماء والأمراء بتأسيس المدارس الدينية الابتدائية في كيرالا لتدريب الاولادالصغار الامور الدينية ولتعليمهم الاحكام الاسلامية . وجدير بالذكر أن لجمعية العلماء "سمستا" مساهمة عظيمة في هذه المجالات كلها. وأنفق العلماء جهدا كبيرا في إقامة الدروس والمدارس الابتدائية والثانوية وثاني ثوانوية في كيرالا وسائر البلاد . وفي نفس الوقت أسس المسلمون دور الأيتام والمساكين لتربية الأولاد على أساس الدين ولئلا يضلوا عن دائرة الدين ولكونهم جيلا مثاليا تنفع للدين والأمة والبلد.

مساهمة الحكام والملوك في إقامة الثقافة الاسلامية:

جرت في كيرالا ثورة "مابيلا" ضد الاستعمارات البريطانية وقد أنكر المسلمون ملابسهم ولغتهم حبا للوطن. وهذا ليس كراهية على اللغة الانجليزية كما قاله بعض المبتدعين وأعداء الاسلام. وتقدم الهندوكيون والنصارى في مجال الوظيفات وسائر مجالات العيش والمسلمون كانوا متخلفين، وبعد ثورة "مابيلا" ظهرت في المسلمين نهضة حديثة ، واجتهدوا للتقدم وفهموا أهمية العلوم المادية مع العلوم الدينية وعلى هذا أسسوا معاهد علمية كثيرا وكليات الآداب والعلوم والهندسية والطبية وسائر المعاهد الوظيفية والتقنية والحاسوب وهذه نبذة يسيرة لنهضات المسلمين بعد ثورة "مابيلا" وبين المسلمين حركات إسلامية تقوم بهذه النشاطات الدينية والعلمية والثقافية.

والملوك والحكام في كيرالا قد منحوا كل مساعدة في إقامة الثقافة الإسلامية وحفظها، وكان زين الدين المخدوم (ر) مرشدا و ناصحا لملك ساموتيري . وكان الملك ساموتيري يطلب المساعدة من زين الدين المخدوم (ر) في إعداد الرسالات في العربية إلى الملوك والحكام في البلاد الخارجية ، وللاتصالات بالبلاد العربية . واستمر بين ساموتيري والمسلمين محبة عظيمة وتعلق عميق. وكان ساموتيري يكرم علماء المسلمين. وفي هذا الزمان قد قام بين المسلمين وبين مختلف الطبقات والأجناس تضامن ديني شديد.

ويدل على هذا بعض الواقعات ، منها أن قاضي محمد كان قاضيا في كاليكوت مؤلف "محيي الدين مالا" ألف قصيدة باسم الفتح المبين وقدمه للسامري . وهذا دليل على المحبة الوثيقة التي كانت بين الهندوكيين والمسلمين . ويقول في آخرها

"مسميا لذاك بالفتح المبين * للسامري الذي يحب المسلمين

ومنها أن خادم قطب الزمان السيد علوي المنفرمي قدس الله سره العزيز كان شخصا هندوكيا المسمى بـ"كندوناير". وكان السيد علوي المنفرمي يعامله بمحبة ويشاوره حينما يأخذ رأيا في أي موضوع. ومنها ما حدث في بناء بركة منانجرا في كاليكوت من أن السيد الجفري (ر) قال يحصل من هذا الموضع ماء يكفي لأهل هذه البقعة. وساعد الملك ديبو سلطان اقتصاديا في بناء البركة. وأعد الحاكم مان وكرمان تنفران الموضع الذي تقع فيه البركة الآن.

دور الصوفيين في إقامة الثقافة الإسلامية:

الصوفيون قاموا بتشكيل الثقافة الاسلامية في كيرالا وأجادوا بنشاطات وخدمات جليلة في تطوراتها، والسادات والعلماء شدوا مئزهم في تزكية المجتمع من الثقافة والعادات والاعتقادات المخالفة للتوحيد ومن نظام الحياة التي استمرت في كيرالا ونصحوا الناس أن يقبلوا الايمان والعادات الغير المضادة لعقيدة الاسلام . وأقاموا المساجد والمعاهد الدينية ، وكان مالك بن دينار الذي قدم إلى كيرالا بدعوة الاسلام عالما صوفيا وتلميذا للحسن البصري (ر) وفي مختلف نواحي كيرالا مقابر هؤلاء الصوفيين والأولياء والعلماء الذين أثروا في الثقافة الاسلامية وتبليغ رسالة الدين.

وكان في كيرالا يعمل الطرائق الأربعة للصوفية. والأهم منها الطريقة القادرية التي قام بنشرها المخدومون (ر) وقضاة كاليكوت كانوا من مشائخ الطريقة القادرية وأتباعها. والسادات الجفريون في كاليكوت والسادات العيدروسيون في فناني. كانوا من أتباع الطريقة الباعلوية التي هي فرع من الطريقة القادرية. وقدّم السيد علوي المنفرمي (ر) خدمات جليلة في نشر دعوة الاسلام وثقافته بين المسلمين بين المجتمع في منطقة مليبار. وكان عمر القاضي البلانكوتي وأوكويا مسليار البربنغادي من تلاميذ السيد علوي المنفرمي، وقاما بخدمات عظيمة في نشر العلوم الدينية والثقافة الاسلامية . وكذا الشيخ عبد الرحمن التانوري (ر) كان عالما صوفيا من السلسلة النقشبندية. وهؤلاء الصوفيون والعلماء والسادات قد قاموا بنشر دعوة

دين الاسلام واجتهدوا لإثبات الثقافة الاسلامية في قلوب أهالي كيرالا وفي كل مجالات حياتهم الدينية والدنيوية.

وفي تنمية ثقافة البلد تأثير ودور كبير للطبيعة والبيئات والعصر والمجتمع. الثقافة تنمو وتتطور حسب ذلك . والثقافة الاسلامية تزيل من المجتمع الثقافة الفاسدة ، وبالنظرإلى المجتمع، الأهم عاداتهم واعتقاداتهم . ويمكن أن يتطور المجتمع بتبديل هذه الاعتقادات والعادات وساهم في هذه التطورات المجتمع والبيئات الخاصة لذلك البلد . وباعتبار هذه العناصر كلها أجرى مالك بن دينار وأصحابه والعلماء بعدهم الثقافة الاسلامية في كيرالا.

وساعدت في تنمية الثقافة الاسلامية في كيرالا مؤلفات العلماء في اللغة العربية وعربي ملايالم وملايالم، ولهم مؤلفات كثيرة في موضوعات شتى. وترجموا القرآن إلى لغة عربي ملايالم أولا ثم إلى ملايالم. وصنفوا كتبا كثيرة في علوم القرآن والحديث الشريف والفقه والتاريخ والفلسفة والجغرافيا وعلم الميقات والتصوف وغيرها. وأثرت هذه المؤلفات تأثيرا عظيما في إثبات الثقافة الاسلامية في قلوب الناس وحياتهم . وهكذا كان هذا البلد خاضا لدين الاسلام والثقافة الاسلامية.